

مفهوم الفضاء و تمثالاته الاجتماعية

د. عكروت فريدة

جامعة مستغانم

الفضاء كلمة تحمل معاني عديدة ومرادفات كثيرة تعطيها وظيفة واستعمالا حسب السياق، فقد نستعمل كلمة فضاء بالنسبة للحديث عن الفضاء الخارجي مثل الفضاء خارج الكرة الأرضية كما يقصد بالكلمة تحديدا للمكان فنحدد أنه فضاء لممارسة نشاط ما. أما بالفرنسية فنقصد به L'espace المكان أو endroit ou place كما يمكن أن نقصد به البعد la distance كأن نقول: "il ya le même espace entre chaque point".

فالفضاء هو ذلك المكان أو المجال المادي والمعنوي المفتوح أمام الأفراد من أجل الاستفادة المشتركة في النشاط لتحقيق المعنى المشترك، حيث يتخذ الأفراد في الفضاء المعين سلوكيات معينة حسب الوضعية التي يتواجدون فيها (أي حسب طبيعة الفضاء) يتفاعلون ويتبادلون الآراء، المواقف والاتجاهات، ينشئون بذلك فضاء حيويًا ذا دلالة لجميع المتدخلين فيه وذا منفعة مشتركة يستعملونه لبلوغ أهداف وغايات معينة.

الفضاء كحيز مكاني لا فائدة منه إذ لما يستغل ويوظف لتبادل الآراء والأفكار والاتجاهات والنقاشات والتفاعل بين الأفراد رمزيا ومعنويا، حيث يحدد ذلك الديناميكية الاجتماعية لأفراد المجتمع ، فالمدرسة فضاء عمومي وكذا المسجد والسوق والحديقة والحمامات والزوايا ومؤسسات الدولة الخاصة بالتعليم ومرافق الصحة والقضاء والإعلام وكذا المؤسسات التشريعية والتنفيذية والأحزاب والجمعيات والمنظمات والهيئات، ومن هذا المنطلق تعد الجامعة فضاءً عمومياً.

يقابل مصطلح الفضاء بالأجنبية Espace ويقصد به الفضاء في حد ذاته في معناه الواسع بعيدا عن كل شيء، فضاء العالم الخارجي الحقيقي، أو الكون المعيش والذي يخضع ويخضع له وحدات القياس والأبعاد والمسافات المتعارف عليها ويتجاوزها إلى القياس بالسنوات الضوئية..... وهو الفضاء الذي يشمل كل ما يحيط بالإنسان بداية من باطن الأرض إلى اللامتناهيات الكونية كالكواكب والسديم والمجرات.... وهو الفضاء الحقيقي الوحيد الموجود والذي يوحي بإنشاء فضاءات جديدة من خلاله ومحاكاة كل الأشياء والأمكنة التي تتحيز فيه لتختص بعدها بعالم الرواية كما توجد فضاءات تتعلق ببعضها البعض تساعد على بلورة بعضها دون أن تلغي خصوصية بعضها . أصر حسن نجمي على ضرورة الانتباه للنقاد العربي إلى فرق الهواء القائم بين الفضاء والمكان خاصة بعد ترجمة غالب هالسا لكتاب Gaston Bachelard la poétique de l'espace شعرية الفضاء المكتوب بالفرنسية نقلا عن الانجليزية والذي ترجمه بعنوان "جمالية المكان" والذي اعتبره حسن نجمي خيانة لا

ترجمة أخلط فيها المترجم مفهوم الفضاء بمفهوم المكان ليلقي بذلك كتاب Bachelard تهميشاً وإقصاء عند ترجمته¹.

كما يجب أن ننبه إلى الزاوية الفلسفية التي تقر بفكرة أسبقية الفضاء للوجود عن الأمكنة حيث أعطى الفلاسفة للفضاء الأولوية على الأمكنة لأنه هو الذي يحتويها مهما كانت طبيعة هذه الأمكنة ، فالفضاء سابق للمكان؛ هناك فضاء أولاً ومن بعده تأتي الأمكنة لتجد وضعها ضمن هذا الفضاء². حيث يدعو أرسطو باعتباره من كبار الفلاسفة لهذه الفكرة حيث يعدّه موجوداً ما دام نشغله وتحتيز فيه وكذلك ما يمكن إدراكه عن طريق الحركة التي أبرزها حركة النقلة من مكان إلى آخر وهو مفارق للأجسام المتمكنة فيه وسابق عليها ويفسد بفسادها³ إلا أن ما كان يفهمه قدماء اليونان وقدماء العرب المسلمون من مفهوم الفضاء ليس ما تفهمه أوروبا النهضة أو أوروبا القرن (19 م)، وليس ما نفهمه اليوم من هذا المفهوم في مجموع استعمالاته وتوظيفاته الإستباقية والأدبية والفلسفية⁴.

تعد الثقافة مرجعية ثابتة في التاريخ وتتحدد بالفعل والممارسة⁵ درس وحلل Habermas المجتمع الغربي خلال القرن (18) و(17) من خلال التطرق للفضاء العمومي البرجوازي ودوره في تغييره دون أن يعايش ذلك الزمان والمكان.

كما درس ابن خلدون ووصف وحلل المجتمع العربي الإسلامي في مرحلة النزعات الفكرية والدينية والسياسية وهو معاش له في القرن 8 هـ- 14 للميلاد، من خلال الفضاءات المادية والمعنوية، السياسية والدينية، الثقافية، الفكرية والعمرانية وذلك لفهم حركية المجتمع ككل. يرى نصر الدين العياضي أن الحديث عن الفضاء العمومي في العالم العربي والجزائر يشكل مغامرة حقيقية لأنه يوجد من يعارض استخدام هذا المفهوم في المجتمعات العربية، هذا الإعتراض نابع من نزعة أساسية تتمثل في الوقوف ضد كل محاولة توظيف مفاهيم غربية عن البيئة العربية الإسلامية لتوضيح ظواهر اجتماعية وسياسية أو تفسيرها⁶.

ينشأ المفهوم وينمو من خلال منظومة تصورات دالة على معاني ورموز محددة مأخوذة من رحم الميادين الفكرية، المرتبطة بالمجال النظري والسياق النصي واللغوي لأي مجتمع من أجل التواصل والاتصال من أجل الحوار الفكري الاجتماعي، ومن أجل بناء نسق فكري مرجعي، ذلك أن أي مفهوم يساهم في تحديد التصور النظري والإمبريقي لدراسة ظاهرة ما في مجتمع ما وزمان ما.

يقول أ/ محمد محفوظ: "إن الوعي الجماعي الاجتماعي عبارة عن جملة المفاهيم والأفكار والثقافات التي توجه حركية أفراد المجتمع لذلك يختلف الوعي الاجتماعي من مجتمع إلى آخر، باختلاف المفاهيم المهيمنة على المسار الاجتماعي وطبيعة الإنسان إلى تلك المفاهيم والخوافز القصوى التي تخلقها المفاهيم في حياة الناس. لذلك فإن الوعي الاجتماعي هو وليد فهم الناس لتاريخهم وحاضرهم وقيمهم العليا، ونتائج التفاعل البشري مع الأطراف النظرية المتاحة أو المتداولة"⁷.

يقول **Debray, Régis**: "إن المدرسة النظرية ليست فقط مجموعة الأطروحات وقناعات، إنها بيئة حياة وملجأ أمان ومأوى للمساعدة والحماية الاجتماعية، إن الإنتاجات الكبرى والمعتقدات في البشرية هي أدوات ووسائل تنظيم جماعي للتفكير يعني التنظيم، الترتيب" ⁸ يعرف **Habermas** الفضاء العمومي على أنه: "الحيز المعنوي الذي يتم فيه عقد النقاشات العامة من أجل اتخاذ القرارات التي تدير الشأن العام" ⁹، وعليه فكلمة عمومي هي كلمة مشتقة من كلمة عام أي الشأن الجماعي المشترك وهي عكس كلمة "خاص أو شخصي" أو فردي الذي يؤدي إلى منفعة شخصية أو ذاتية. حيث تعني هذه الكلمة بالفرنسية *le commun général /public/* ويقصد بها الجمهور كأن نقول: "l'exposition est ouverte au public" ¹⁰.

كما يعرفه **Louis Quéré** على أنه: "فضاء رمزي symbolique أين يسمح للأفراد بالتموقع و التوضع داخل المجتمع واتجاهه، فالمفهوم يحمل فكرتين: الأولى أنه مجال عمومي للتعبير الحر، ننظر إليه كفضاء للاتصال والثانية أن الأفراد بداخله يبرزون آراءهم خلال النقاش العلني، بحيث يلجأون إلى استعمال دلالات عقلانية في محاولة إيجاد حلول مناسبة للمسائل العامة" ¹¹.

أما مدرسة شيكاغو وعلى لسان **Richard Semret** فتري أن الفضاء العمومي هو ذلك المكان أين نجد الإشارات والرموز تحت تصرف الأفراد الذين يقومون بترجمتها وتأويلها من أجل بناء علاقات تبادلية بينهم ، كما أن هذا النوع من الفضاءات هو تلك: "العلاقات المبنية بين الأفراد المعروفين بذواتهم وبأفعالهم في المجتمع حيث يبنون هذه العلاقات من أجل التبادل والتفاهم والتعاون الاجتماعي" ¹².

يتبنى من جهة أخرى **Wolton Dominique** فيعرفه على أنه: "مجموعة المسارح والساحات كمؤسسات أين تتبلور وتوضح وتفرز فيها مجموعة من الأفعال الموجهة سياسيا والتي تتم فيها المشاركة الجماعية، أين تلتقي أشكال الفضاء السياسي والفضاء الاجتماعي" ¹³.

ويعرفه **Pierre Chambat** على أنه: " فكرة موجهة بطريقة إعلامية بين المجتمع المدني والدولة، بين الإجماعي la sociabilité والمواطنة بين الخاص والعام بين الأخلاق والسياسة" ¹⁴.

ونرى أن الفضاء يمكن أن يكون أقرب إلى تحقيق كل هذه التقاطعات بين العام والخاص من خلال عمليات الاتصال التنظيمي التي تحددها طبيعة الفضاء الأكاديمي، وبين الإعلام والسياسة على أساس أنه فضاء تمارس فيه عملية الإعلان عن الاتجاهات السياسية بطرق مختلفة أهمها التنظيمات الطلابية، ومن جهة أخرى أنه فضاء يضم مستويات اجتماعية مختلفة من منطلق أنه فضاء يجمع بين فئات المجتمع المختلفة، في غياب خيارات (بدل أن نقول طبقات) أخرى كالجامعات الخاصة، على أساس يمكن التوقع بسلوكات مختلفة نسبة للمراجع السوسيوثقافية المختلفة وإعطاء عينة (نموذج un modèle) من السلوك المختلط بين الريف والحضري، وبين البدوي والمتطور.

إن العلاقات بين الأفراد كانت تربطها (أو تفرضها) المكانة الاجتماعية ولا تزال الطبقية ولكن بأشكال مختلفة الآن، حيث يظهر أن مفهوم الطبقات قد ولى، ففي القديم كان الانتماء إلى المدينة أولاً، العبيد والملاك، وهي آليات تغيرت بالنسبة للمجتمع البرجوازي في القرن 18 م فالمدينة في الخطاب الاجتماعي المعاصر انزلت فيها مفاهيم التمدن *urbanité* الاجتماعي *sociabilité* والمواطنة.

تقول **Arendt Hannah** أن: "إضفاء صفة العمومية على الفضاء يوضح تبادل الآراء والأفكار حيث أن فكرة الرأي العام أصبحت مرتبطة بمفهوم الفضاء العمومي"¹⁵.

إذن يرى العديد من الباحثين أنه لا يجب توظيف مفاهيم أنتجها الواقع والفكر الغربي على المجتمعات العربية الإسلامية لاختلاف البيئتين المنتجتين للمعاني والسلوكيات والأفكار على مستوى الأهداف، التحليل والمبدأ، إلا أننا نرى أن الفكر العربي فقير في إنتاجاته في الوقت الراهن وهو ما أجبر المفكر العربي على اللجوء إلى ما أنتجه الفكر الغربي، إلا أن الأمر لا يتعلق بعملية اللجوء وإنما يتوقف على عملية التكييف والقبولة وحسن الاستعمال والتموضع الإستراتيجي للموضع وأرجأته.

إن فكرة الفضاء العمومي تبلورت مع تطور المجتمع البرجوازي الأوروبي الذي عرف إبتداءاً من القرن (18) م تغييرات جذرية على مستوى العلاقات بين الفئات الاجتماعية المكونة له على مستوى العلاقات بين الطبقة السياسية والطبقة البرجوازية وعلى مستوى الإنتاج المادي والمعرفي، من وسائل الإنتاج الصناعية إلى وسائل الإنتاج الفكرية.

و يفرق **Habermas** بين السلطة الاتصالية وسلطة الاتصال *communicationnel pouvoir* والسلطة الإدارية أو سلطة الإدارة، فيميز بينهما انطلاقاً من حضور أو غياب السيطرة ⁽¹⁶⁾ *la domination*. وعليه فالسلطة الاتصالية عند هابرماس تمكن من تكريس الإرادة الشعبية التي تعتبرها تصوراً معيارياً *normatif* للفضاء العمومي¹⁷ تأكيداً منه على أن الشعب هو المانح الأول لشرعية الحاكم وللسلطة السياسية، لذلك يقول أن الفضاء العمومي تصور عقلاني مرتبط بالسلطة والممارسة الجماعية، التمثيل والشرعية وهو يعمل على تهذيب السياسة ونقدها ويبحث عن تجسيد سلطة الأفراد والجماعات¹⁸ على أساس أن هاتين السلطتين يوجد بينهما علاقة ترابطية، أن الواحدة منها في حاجة للأخرى. حيث يقول **Habermas**: "كلٌّ من السلطتين الاتصالية والإدارية، مكملتان لبعضهما البعض فالأولى تمنح الشرعية للثانية والثانية تؤخذ من الإرادة الشعبية المؤسسة والمجدة في النظام السياسي.

فالأولى تعمل على توجيه المجتمع، والثانية تأخذ مسؤولية اتخاذ القرارات بتنفيذ التوجيهات المأخوذة بطريقة ديمقراطية¹⁹ ذلك أن الاتصال هو أساس الحوار، المفاهيم والنقاشات الحرة والعامة، والتي هي بحاجة إلى فضاء تتم من خلاله عملية التبادل والتواصل الاجتماعي حيث يرى **Habermas** أن السلطة الاتصالية تتطلب وبحاجة إلى فضاء عمومي من أجل الوجود²⁰.

إن الفعل والمعنى الاتصالي كان وما زال الميدان أو الوسط الذي يسبح فيه الفضاء العمومي، فهذا الميدان أمر يشغل فكر العلوم الاجتماعية لأنه من الملاحظ أن تطور العلوم الاتصالية م² حيث تناولها من الجانب النظري الفلسفي والفكري كانت متعلقة بتطور الفعل الاتصالي للاتصال والمجتمع، وهذا ما طرحه مثلاً Habermas في كتابه «l'agir» 1987 paris communicationnel حيث ورد في ص 91 أن عملية التفسير البراغماتي الرسمي لمفهوم النشاط الاتصالي مرتبط مباشرة بالنشاط اللغوي، وفي هذا الكتاب يدعو Habermas إلى مجتمع اتصالي مثالي وإلى ما يسمى بالعقلانية الاتصالية la communauté de la communication idéale et la rationalité ensemble.

وعليه تعتبر معيارية الفضاء العمومي عند Habermas تأخذ بعين الاعتبار المستوى الاستمولوجي والنموذجي المطالب الأساسية لعقلانية الاتصال وكيفية استعمالها، لذلك يعتبر المعيار شرطاً أساسياً لنظرية نقدية له بدل أن تنظر للمجتمع كما هو عليه وتقوم بتحليله ونقده (بمعنى نقد الحقيقة الاجتماعية) فالمجتمعات تطورت في كل الميادين المؤسسية، التنظيمية والتركيبية، الاجتماعية والسياسية والاتصالية والفكرية وكذا التكنولوجيا التي أفرزت أوضاعاً ووضعيات ووظائف وأدوار جديدة للمجتمع والأفراد، الأمر الملاحظ في الجامعة، والتي كان ينظر إليها بالمنظور الجمعي الاجتماعي على أنها فضاء علمي يفرز أفراداً وجماعات علمية تساعد وتعمل على حل مشاكل المجتمع وتطويره، وأصبح ينظر إليه على أساس أنه فضاء يعمل على امتصاص البطالة كحل مؤقتة إلى حين.

اعتبر إذن Habermas الفضاء العمومي عنصراً أساسياً من المنظومة الديمقراطية للمجتمع، على أساس أنه العنصر الأساسي لدراسة التحركات الاجتماعية والصيرورة التاريخية للمجتمع .

وعن مفهوم المصطلح سيميائي، لقد سعى السيميائيون إلى إعطاء الفضاء مفهوماً خاصاً به، حتى لا يلتبس بغيره، وكانت أولى البدايات مع السيميائي Youri Lotman الذي يرتبط مفهوم الفضاء عنده بمفهوم العمل الفني، وقد حدده على أنه مجموعة من الأشياء المتجانسة المتماثلة (من الظواهر والأحوال والوظائف والأشكال أو الوجوه والدلالات المتغيرة... الخ). والتي تربط بينهما علاقات شبيهة بالعلاقات الفضائية المعتادة أو المتعارف عليها كالاتمرارية والبعد... الخ. وإذا اعتبرنا أن هذه الأشياء المذكورة تمثل فضاء، فلا بد أن نجردها من كل خصائصها الأخرى، ما عدا تلك التي تعرفها العلاقات ذات المظهر الفضائي والتي تؤخذ بعين الاعتبار²¹ وبهذا يتحدد الفضاء عند Lotman من خلال العلاقات الفضائية مجتمعة (الأمكنة والأحداث، الشخصيات...)

في حين تحدث كل من A. j. Gréimas و J. Courtés حول مصطلح الفضاء الذي استعمل سيميائياً بمفاهيم مختلفة يجمع بينهما قاسم مشترك يتمثل في اعتبار الفضاء موضوعاً مبنياً²².

الفرق بين الفضاء والمكان :

من الباحثين من يعتبر الفضاء عالماً متناهما بالنسبة للباحث السيميوطيقي يمكن حصره في مكونين بنيويين هما المكان والزمان²³. وهناك من يرى أن مجموع الأمكنة هو ما يبدو منطقياً أن نطلق عليه تسمية فضاء، ذلك أن الفضاء أشمل وأوسع من معنى المكان، وهذا المعنى المكان هو مكون للفضاء ومادامت الأمكنة غالباً ما تكون متعددة ومتفاوتة فإن الفضاء هو الذي يلفها جميعاً بما فيها الأحداث التي تكون فيه، فالمكان يسعى إلى تشكيل الفضاء وليس العكس.

يعد Poulet من السباقين إلى إظهار طبيعة العلاقة التي تربط المكان بالفضاء حيث قال أن: "الأمكنة عبارة عن جزر متنقلة داخل الفضاء، وهي أكوام صغيرة على حدة"²⁴. فالمكان يتداخل مع أمكنة أخرى سواء بإدراكها حسياً أم بواسطة تجريدتها ذهنياً حيث أشار Hume بوصف المكان أنات وكل (أنا) تندمج في نظام لعلاقات مكانية تشكل عنقوداً مكاناً²⁵. يقول متران أن المكان يبني الفضاء فيرى أنه لا يكون المكان كقطعة القماش بالنسبة إلى اللوحة، بل يكون الفضاء الذي تضعه اللوحة²⁶.

يرى حسن نجمي أنه ربما كان المكان أو العلائق بين أمكنة أحد أسس هذه الفضائية التجريدية لكنها ليست هي كل شيء عند تحديد الفضاء كما ينبغي له لأن هذه التفاصيل الطبوغرافية لأسماء وعلائق الأمكنة، المشاهد الجغرافية، الحضرية والطبيعية للتأثير والديكور. ليس لها سوى لعب أدوار ثانوية ضمن بنية الفضاء لأن مفهوم الفضاء أكثر انطلافاً و شساعة من مثل هذه التحديات الضيقة وإلا ماذا نقول بالنسبة للفضاء، الحلم، الموت، الذاكرة والهوية... إلخ²⁷ التي يقصد بها هنا تجليات الفضاء الذهنية والنفسية، في حين تمثل (الساحات، الشوارع والبيوت..) الفضاءات المرجعية التي تحيل على معرفة منظمة أو تحيل على أشياء مادية لها دلالات معروفة لدينا.

قدمت لنا مختلف هذه التعاريف صورة شبه دقيقة على ما نحاول دراسته من خلال هذه المحاولة العلمية، فقد اتخذنا مفهوم الفضاء في هذه الدراسة على أنه المكان والحيز الإنساني الحاوي للعادات والتقاليد والصيغ الفكرية كمظهر أساسي يحدد الوظيفة الأساسية للمكان، على أساس أنه عنصر هام لفهم طبيعة تفاعل الإنسان مع -الفضاء، المكان- وسلوكه فيه، فهو عامل أساسي لتحريك البنية الحضارية للمجتمع، يحقق الهوية الحضارية والتي يُشأنها التنظيم الإدراكي للأفراد والذي بدوره يهيئ وسائل الاتصال والتفاعل والعلاقات الإنسانية مع مختلف الأشياء الموجودة في محيطهم. يحقق ذلك التوازن بين الذات وما حولها، فالفضاء أو المكان لا يصبح ذا معنى إلا عندما يشعر الفرد بالانتماء إليه.

1- الإنسان و الفضاء :

إن مشكلة تمثل فضاء (المكان) في مجتمع خاص تتموضع حول مفهوم السلوك والاتصال داخل هذا الفضاء الذي تهيكله علاقة الإنسان بهذا الفضاء وبصورة أوسع بالمجتمع الذي يتواجد فيه كعنصر فاعل. يحمل كل

فضاء خصوصية ما يمارس فيه، وكيف يتم التعامل داخله من خلال الحدود التي يرسمها ويرتسمها في أذهان من يترددون عليه²⁸.

تعتبر علاقة الإنسان بالفضاء (المكان) علاقة دينية واجتماعية ونفسية واقتصادية وأدبية وعلمية وسياسية وثقافية وقد يرتبط الإنسان بالمكان بأكثر من علاقة، والعلاقة الدينية هي العلاقة الأقوى التي تتبعها سائر العلاقات الأخرى كالنفسية والاجتماعية والأدبية والاقتصادية والسياسية والعلمية والثقافية عامة، فمنذ الأزل والإنسان يجهد نفسه في استيعاب المكان وإدراكه وفهم الزمن ومجرياته. وأثمرت جهوده هذه العلوم جميعا. فالبعض قد ركز على الطبيعة ومكوناتها، والآخر انصب اهتمامه على الإنسان ونشاطاته ومنهم من حاول سبر أغوار الإنسان لفهم كنهه، والبعض خلق في أجواء فكرية تنأى عن المكان والزمان قصد فهمهما. وفي جميع هذه الحالات كان الإنسان وخدمته هو الهدف المعلن وغير المعلن (أفرادا ومجموعات). هدف الإنسان المكان لأنه يعيش فيه وينشط، ويدرس الزمن لأنه من نتائج حركة الإنسان والمادة (الطبيعة والكون) وتفاعلها مع بعض. يشير محمد علي المحمود في مقال له عن جدلية الإنسان والمكان إلى أن عنصر المكان "لا يقتصر على دراسة الجغرافيا، وإنما يشمل الواقعة الاجتماعية ككل"²⁹ وهذا فله أهمية كبرى في سياق تحليل الظواهر الإنسانية، ذات الطابع العام. وإن عنصر المكان "مشدود إلى حقول معرفية لا حصر لها، حتى وإن كانت هذه الحقول – من حيث المرجعية التخصصية – تتمحور حول تخصصين اثنين، يشكلان الدعامات الأساسية لها، وهما علم النفس الاجتماعي، وعلم اجتماع المعرفة. "وحسب رأيه فإنه من عالم "هذين التخصصين، تستمد معظم الرؤى التحليلية – واعية وغير واعية – آلياتها في مقارنة جدلية الإنسان والمكان". فعلماء الاجتماع يركزون على دور المجتمع (مجموعة من الناس تربطهم روابط ويعيشون في مكان محدد وفي زمن محدد). مما يعني أن العلوم الاجتماعية على وجه الخصوص تتباهى في تخصصها بالمكان وتعدده ملكا لها، وبهذا لم تعد الجغرافيا بدون منافسين كما يعتقد البعض ويجهل ذلك الكثير.

وركز عمر منيب إدلي على تبادلية التأثير بين الإنسان والمكان، حيث يقول "إذ يسهم المكان في تشكيل وعي الإنسان بوجوده، ويطلع فكره وهويته – وقبل ذلك كله فيزيولوجيته – بطابعه فيما يسهم الإنسان في إضفاء خصائص إنسانيته على المكان بتبدل صفاته وبنيته، وأنسنة فضائه، وهذه العلاقة التأثيرية المتبادلة تتحول بفعل التعود على مر الزمن إلى علاقة حميمة، يترك هدمها أو قمعها آثارا كارثية على الطرفين فشخصية المكان يرسمها الإنسان وخصائصه، وسماته تتحدد بنسب متباينة بالمكان. ولا يعني هذا الاعتقاد بالحتم الطبيعي (الجغرافي) بل إن التأثير موجود (سلبا وإيجابا) ولكنه ليس العامل الوحيد والحتي، إنه يتفاعل مع عوامل أخرى ذاتية وموضوعية في جدلية صارخة أحيانا وهامسة أحيانا كثيرة. يقول الإدلي "ولما كان للمكان حضوره المؤسس والبناء لعلاقات المجتمع بفعل تفاعل الإنسان مع محيطه الجغرافي وأشياءه، فإن للإنسان بالمقابل دوره في تشكيل القيم الخاصة بهذا المكان عبر مجموعة العلاقات والسلوكيات الإنسانية التي تصبح فيما بعد رموزا دلالية تشكل في مجموعها صفات مكان ما هناك الكثير من الأمثلة عن تباين القيم الخاصة بين سكان المناطق

المختلفة حيث رسمها المعنيون بالقيم الاجتماعية وتمحورها مكانيا كجزر حضارية (البعض يسميها ثقافات فرعية، وتقود نشاطات المجتمع وقيمه، العليا منها على وجه الخصوص، وتتجسد واقعيا بالتراتبية الاجتماعية التي تصنع المكان والمكانة"³⁰ (محمد علي المحمود).

كما أن الكثير من الدراسات البيئية إهتمت بدراسة المكان وعلاقة الإنسان إرتباطه به وفقد قدمت مدرسة شيكاغو للبيئة الاجتماعية الأدلة الإحصائية على التراتب الاجتماعي -الاقتصادي- المكاني لسكان المدن الكبيرة. فالإنسان ينظم مكانه ليرز خصائصه الذاتية والاجتماعية بصيغ مكانية.

كما نجد على المستوى الفردي (الشخصي) كتب السير الذاتية يركزون على المكان وأثره على شخصية المبحوث وأفكاره ونتاجه الأدبي أو العلمي. وفي الأدب فان "الفضاء الجغرافي" والإشارة إليه له أهميته في تشكيل الصورة في ذهن ومخيلة المتلقي للتعرف على خصائص الأمكنة وصفاتها. وعودة إلى عمر منيب الذي يؤكد أن عنصر المكان "لا يمكن النظر إليه من منطلق عزلة عن بقية العناصر السردية الأخرى (الزمن، الشخصية...)" ، ولاسيما عنصر الزمن، إذ (يستحيل وجود مكان أرضي، أو غير أرضي لا يتضمن كمية من الزمن وجدت بوجوده واستمرت باستمراره)، كما أن المكان (لا تتجلى أبرز صفاته الجمالية إلا من خلال الزمان والإنسان)". فعملية الفصل بين الإنسان والمكان والزمان اعتباطية وليست حقيقية.

2 - الدراسات الخاصة بالمكان كبيئة اجتماعية :

نذكر في هذا المقام الدراسة التي قدمها Robert Bark حول المدينة والتي تضمنها مقالته بعنوان (المدينة) عام (1915) التي تعدّ من الدراسات المبكرة والتي أسهمت في إرساء أسس علم الاجتماع الحضري بوصفه فرعاً من فروع علم الاجتماع يهتم بدراسة المدينة، وذلك ما أكدته بوضوح مؤلف Bark et Berges الذي نشر عام (1926) بعنوان (المجتمع المحلي الحضري. يرى Bark أن المدينة ليست تجمعات من الناس فقط، مع ما يجعل حياتهم فيها أمراً ممكناً، بوجود الشوارع والمباني والكهرباء ووسائل النقل والمواصلات. كما أنّها ليست فقط مجموعة من النظم والإدارات مثل: المحاكم والمستشفيات والمدارس والشرطة والخدمات. إنّ المدينة فوق هذا كله، اتجاه عقلي ومجموعة من العادات والتقاليد والعواطف المتأصلة في هذه العادات؛ بكلام آخر أنّ المدينة ليست مكان فيزيقي أو بناء صنعه الإنسان فقط، وإنّما هي نتاج الطبيعة وذات طبيعة إنسانية، ومن ثم هي في النهاية مكان إقامة طبيعي للإنسان المتمدن، لهذا فإنّها تُعدّ منطقة ثقافية متميزة.

فأي تجمع إنساني تقوم بين أعضائه روابط الاعتماد الوظيفي المتبادل ويشغل منطقة جغرافية محددة ويستمر خلال الزمن عن طريق ثقافية مشتركة تمكن الأفراد من تطوير أنساق محددة للاتصال والإجماع فيما بينهم كما تيسر لهم سبل التفاعل وتنظيم أوجه نشاطاتهم اليومية، حيث تقوم على اعتبارين اثنين:

- يختص بتقييم البعد المكاني.

-البعد الزمني .

و بالمقابل فإن أصحاب النظرية التفاعلية يبدؤون بدراستهم للنظام التعليمي من خلال دراستهم للفصل الدراسي (مكان حدوث الفعل الاجتماعي). فالعلاقة في الفصل الدراسي والتلاميذ والمعلم، هي علاقة حاسمة؛ لأنه يمكن التفاوض حول الحقيقة داخل الصف، إذ يُدرك التلاميذ حقيقة كونهم ماهرين أو أغبياء أو كسالى. وفي ضوء هذه المقولات يتفاعل التلاميذ والمدرسون بعضهم مع بعض، حيث يحققون في النهاية نجاحاً أو فشلاً تعليمياً.

المكان كعامل في عملية الاتصال:

إن الأمكنة وفق السياق الذي تتواجد فيه، هي الفضاء الذي يتحرك فيه الإنسان ويمارس نشاطاته المختلفة، فالمكان بالنسبة لهذه الدراسة لا يتوقف عند وصفه رقعة جغرافية محضة، بل هو منتج للهوية الإنسانية ومستوياتها، فهو دلالة انتماء الأفراد، وعليه فهو يحدد بحكم هذه الصفة الفرد وخصوصيته عند التواجد فيه أو عليه.

إن توضيح الانتماء المادي والمعنوي تكون أهم المرتكزات التي تحدد عليها الهوية الإنسانية، وهي الحالة التي تعطي الشعور بالاطمئنان والراحة والحب.... إلخ، كما أن البعد الدلالي للمكان يتشكل عبر السياق الزمني من حياة الإنسان، كما يحدده Bakhtin: "الزمن يعد البعد الرابع للمكان" ضمن جدلية العلاقة التاريخية بينهما. والتي تحددها عمليات أساسية:

1 - الاستقرار: لا يتوقف على المستوى الحسي، يتغلغل إلى مستويات الذات.

2 - التفاعل: ذلك أن المكان يتضمن عمليات التفاعل.³¹

إن علاقة الزمان بالمكان تظهر من مبدأ أساسي لاستمرار الحياة بأكملها، فلا يمكن أن يستغني الواحد عن الآخر، لأنهما في نهاية الأمر ركنان من أركان العملية الاتصالية، يستمدان أهميتهما وقيمتها من شبكة العلاقات التي ينسجانهما بينهما أولاً، وبين كل منهما وباقي أركان مكونات العملية الاتصالية ذاتها، ثانياً. فجدلية العلاقة بين الزمان والمكان والعملية الاتصالية يقتضي تحديد العلاقة التي تربط بينهما فهما عنصرين فاعلين ومؤثرين في العملية الاتصالية ككل، وخاضعين بدورهما للتأثير.

إن نظرنا إلى الزمن على أنه جبار وقادر على الفعل ، ودليل ذلك في أقوال العرب "فعل به الزمن هذا " ، أما المكان فهو ثابت لا يتحرك يرى ويلم ويفعل به من قبل الزمن ، ومع ذلك فإن الزمن يفتقر إلى المكان ليرسل من خلاله دلائل وعلامات وجوده.

كما أن المكان كان سببا في تراجع بعض الحضارات أو تقدمها وذلك في علاقته بمفهوم القيمة وهو الأمر الذي كتب فيه عزي قائلا:«وقد يدخل من أسباب تراجع الحضارة العربية الإسلامية تفكك المكان وفقدان صلة المكان

بالقيمة إذا تحول المكان إلى حيز للشقاق وحب السيطرة والخوض في ملذات الحياة الدنيا: « ربما ينطبق ذلك على الحضارة الإسلامية لكنه ليس كذلك بالضرورة في الحضارة الغربية. وقد تكون هذه الصورة دليلاً على أن المكان له دلالات ثقافية وعلى أساس أن الإنسان يتدبر المكان والزمان فإن استعماله لهذين المكونين الثقافيين يعفيه من البرهنة على أن السلوكيات والمواقف تبرمج أو تحدد وفقاً لذلك وتعد أطروحة Hall رائدة في هذا المجال، من أحسن ما قدم هذا الكاتب من خلال كتابين "البعد المحجوب" و"اللغة الصامتة". وفي هذا الكتاب الأخير تطرق لثلاثة عناصر أساسية لها دور كبير في التواصل الغير اللفظي هي الزمان والمكان والثقافة « والتي استنطق فيها المكان بطريقة تجعل المفكر يرى ما لهذا العنصر من أهمية في حياتنا اليومية لما له من وظائف تواصلية.

نظراً لأهمية المكان في التواصل، خصص له Hall كتاباً بأكمله: *La dimension cachée* وجزء من كتابه: *Le langage silencieux* تحت عنوان "المكان يتكلم" ونقتطف بعض أقوال Hall للتدليل على الدور الكبير الذي يقوم به المكان في العملية التواصلية إذ يقول: "خلال وجودنا، نتعلم حرفياً آلاف العلامات المكانية التي تأخذ كل واحدة منها معنى خاصاً في سياق خاص". ثم يكرس هذا القول بطريقة مباشرة فيضيف: "حرفياً، بينت لنا آلاف التجارب أن المكان وسيلة تواصل".

وحديثاً، أدخلت وسائل الإعلام بعداً آخر للمكان، فالمكان لم يعد مرتبطاً بالواقع المعاش ولكن ما يأخذ الفرد رمزياً إلى أمكنة لم يكن ممكناً الوصول إليها لولا الصورة الإعلامية السائدة. واعتبر **MacLuhan** أن وسائل الإعلام قربت المسافات و"ألغت" العائق الجغرافي في العلاقة مع الأحداث التي تشغل بال الأفراد والمجتمعات. وعامة فقد قل عامل المكان "المعاش" كمتغير أساسي في تغيير ذات الفرد وانتمائه وشخصيته في المجتمع المعاصر إلى حد كبير. عزى، وقد يتموضع الفرد في هذه الحالة حول نقاط افتراضية وينتقل إلى أماكن وهمية تنزعه من المكان الذي يتواجد فيه فيصبح واقعه غير الواقع الذي يعيش فعلاً ويعيش بمواقع غير موجودة أصلاً، مما سموه في علم الاجتماع بالاغتراب، ويعبر عنه بصورة أكثر وضوحاً عزى قائلاً: « فوسائل الإعلام "تقلعه" من هذا المكان وتنقله إلى المكان الرمزي بصفة مستمرة. ويقضي الإنسان المعاصر جل وقته مع هذه الوسائل وكذا في أماكن معلومة محدودة في واقعه كمراكز التسوق والمباني الإدارية والفنادق وقاعات الانتظار والبنائات المغلقة عامة، الشيء الذي يولد ما سماه ألفن توفلر ب "انهيار الجغرافيا" (demise of geography). يضاف إلى ذلك أن الإنسان المعاصر كثير التنقل والهجرة بحثاً عن الرقي الاجتماعي. إن انتقال الفرد من مكان إلى آخر لا يمثل فعلاً فردياً، بل انتقال شبكة من العلاقات والارتباطات وما ترتب عن ذلك من فقدان البيئة الأصلية والدخول في بيئة فيزيقية جديدة. والحاصل أن كثرة الحركة الاجتماعية وسرعة تبديل الحيز الفيزيقي بفقد الإحساس بالمكان المعاش، ويصبح الفرد على حد قول قليلين ورد "بدون مكان" (no place).³² ضف إلى ذلك أن للعلامات المكانية أثر بالغ في عملية التواصل فهي تتجاوز الكلام وتقف به في مستوى أدنى، يحدد Hall هذه العلامات بما يلي:

أ - الحدودية **Territorialité**: "هي فعل المطالبة والدفاع عن أرض أو حدود معينة" ويعطي Hall أمثلة كثيرة لتوضيح معنى هذه العلامة. فالكلب مثلا يعبر عن ذلك بامتياز إذ يغير من سلوكاته كلما اقتحم أحد الحدود المرسومة لديه (غير المرئية)، وهناك من الطيور والأسماك التي ترجع سنة بعد أخرى إلى نفس العش أو نفس الصخرة، ومن الأمثلة الدالة على ذلك بالنسبة للإنسان إحساس شخص ما بالضيق والانزعاج إذ خرج للاستراحة خلال محاضرة ما وعند رجوعه وجد شخصا جالسا على كرسيه، والمرأة تحس كذلك بقلق لما تستعمل امرأة أخرى مطبخها ولو كانت من أقرب الناس إليها...

ب - القرب **Proximité**: له دور كبير في التواصل إذ يدل قرب المباني مثلا في الولايات المتحدة الأمريكية عن سهولة وسلاسة العلاقات بين الجيران إذ للجار حقوق تماما كما للأقرباء. يقول Hall: "في الولايات المتحدة، على العكس من ذلك، يعتبر القرب أساسا جزء كبير من العلاقات... يحاول الأمريكي أن يختار بدقة جيرانه لأنه يعرف أنه سيدخل في اتصال مباشر معهم".

ت - التنظيم **Organisation**: ليظهر Hall دور التنظيم والتوزيع في التواصل يعطي مثلا خاصا بتوزيع الفضاء بين الموظفين الذين يشتغلون في مكتب واحد. فالأمريكيون يوزعون الفضاء بشكل عادل وديمقراطي بين الأشخاص بغض النظر عن التمايزات الاجتماعية، وإذا ما عين موظف جديد بمكتبهم فإنهم يعيدون تقسيم المكان ليأخذ قسطه منه وهذا دليل على ترحيهم به".

و يعطي مثلا عن الفرنسيين أما الفرنسيون، فلا يأبهون بالملتحق الجديد، بل يخصصون له مكتبا في مكان مظلم متجها نحو الحائط، وإذا كان الموظف الجديد أمريكيا فسيحس بالإحباط والقلق لأن المكان مكنه من فهم رفض الآخرين له وهذا دليل واضح وقوي على دور المكان ودور الثقافة في التواصل.

ث الاتجاه **Orientation**: لا تفضل الثقافة الأمريكية اتجاهها عن آخر، لكن يكتسي الاتجاه أهمية كبرى في ثقافات أخرى، نلاحظ أن بعض الاتجاهات مقدسة أو مفضلة".

ن- المسافة **Distance**: تدل المسافة بين المتخاطبين، فربما أو بعدها، على علاقات حميمية، شخصية، اجتماعية أو عامة. كما يمكنها لوحدها أن تعبر عن العنف أو المواجهة أو راحة المتخاطبين أو قلقهم.³³ أولا: إن المكان في القرآن الكريم لم يمثل عنصرا أساسيا من عناصر السرد القرآني؛ وذلك لأن القرآن لا يهدف إلى تقديم عمل فني، بقدر ما يهدف إلى بيان العقائد والشرائع وسوق العبر والتذكيرة...

ثانيا: ينبني على ذلك أن المكان أو أحد تفاصيله عندما يأتي ذكره في القرآن يفسح المجال أمام الخيال لكي يكمل بقية التفاصيل والعناصر المتعلقة بالمكان..

ثالثا: ومع ذلك فإن المكان في القرآن الكريم قد أتى على هذا النحو إلا أنه لم يغفله تماما، بل هناك إشارات تحفز المتأمل وتدفعه دفعا نحو الالتفات إليها وتدبرها فهناك أماكن بعينها أقسم الله سبحانه وتعالى بها، مثل قوله تعالى: {لا أقسم بهذا البلد وأنت حل بهذا البلد}.

قال أبوحيان في البحر: « أقسم بها لما جمعت من الشرفين؛ شرفها بإضافتها إلى الله تعالى، وشرفها بحضور رسول الله " صلى الله عليه وسلم " فيها وإقامته بها فصارت أهلاً لأن يقسم بها»

وهناك سور حملت أسماء أماكن مدن (الحجر، سبأ) وجبال (الطور) وأماكن خاصة (كالحجرات).

رابعاً: وأيضاً فإن القرآن الكريم لم يقف عند هذا الحد فإنه في كثير من المواضع ذكر المكان بمفهومه العام (المطلق)، فذكر سموات وأراضي وجنان وحدائق ذات بهجة، وألحق هذه الأماكن بأوصاف تلفت عين انتباه القارئ إلى عظيم قدرة الله سبحانه وتعالى في خلق هذه الأماكن وتحويلها من حالة إلى حالة، فاقراً إن شئت قول الله تعالى: {أمن خلق السموات والأرض وأنزل لكم من السماء ماء فأنبأنا به حدائق ذات بهجة ما كان لكم أن تنبتوا شجرها أإله مع الله بل هم قوم يعدلون} (النمل: 60)

موقع القيم والثقافة في جغرافيا المكان:

إن المكان جزء من القيمة وثقافة المجتمع وتاريخه، والحاصل أن الفرد في المنطقة العربية الإسلامية يعيش نوعاً من الاغتراب في مكانه نظراً لانحصار القيمة في العلاقة مع البيئة رغم أن ذلك يختلف من بيئة إلى أخرى ومن حي إلى آخر. فالتركيز في هذا تناول المكاني ما هو المشترك أو السائد في البيئة العربية والإسلامية عامة، ويظهر مثل هذا الاغتراب في اهتزاز العلاقة مع الذات والآخرين والمحيط الفيزيقي. فالسعادة الداخلية والتضامن الاجتماعي وممارسة القيم و"جمالية" المحيط محدودة على اعتبار أن البيئة تتدخل فيها سلباً فلا تجعلها تبرز أو تنمو. كما أن شكل البيئة غير متوازن و"مشوه" وملوث إلى حد كبير، وعادة ما تكون الأماكن الخضراء وأماكن العبادة "أبعد" أو الوصول إليها صعب أو غير موجودة في الحيز الجغرافي المحدود نسبياً. وعمرانياً فإن هندسة البناء لا تعكس النمط القيمي الذي ينتمي إليه الفرد، بل يسمى هذا النمط في الكثير من البلدان العربية والإسلامية بـ"البناء الفوضوي"، وذلك على الرغم من وجود أكثر من بيئة فيزيقية في المدينة الواحدة كما أسلفنا. وعامة، فالنوافذ متقابلة³⁴ ومتقاربة الشيء الذي لا يحافظ على حرمة العائلة وخصوصياتها، وكثيراً ما تترك هذه النوافذ مقفلة حفاظاً على هذه الحرمة، غم أن دلالة النافذة تعني "المنفذ إلى الخارج". وكانت النوافذ في البناء السكني الأصلي تنفتح على الساحة الداخلية للبيت الذي عادة ما تتوسطه أيضاً ساحة داخلية الشيء الذي يحافظ على خصوصية العائلة وتوازنها في العلاقة مع البيئة. كما ازداد الضجيج في البناء الحالي كضجيج الأطفال، وصوت الموسيقى الذي يكون على حساب راحة الجيران. وعامة فإن الحيز السكني "الضييق" لا تأخذ بعين الاعتبار حق الجار في معظم الحالات. ويترتب عن ذلك أن يتراجع الفرد و"يسجن" نفسه في حيزه المكاني، ويعزل نفسه عن الجيران والآخرين على حد أحد الأمثلة الشائعة في منطقة المغرب العربي "أخطا راسي"، أي أن المهم أن لا تمسني الكارثة مباشرة. وتاريخياً، فقد كان المسجد أعلى بناية في البلدة أو القرية إذ إنه يمثل سلطة معنوية عليا، ويكون مركز استقطاب معنوي وفيزيقي. وما زالت هذه الظاهرة قائمة في بعض القرى النائية، ومن

أشهر المدن التي بنيت على هذا النمط مدينة غرداية بجنوب الجزائر إذ يعلو المسجد وتنحدر المساكن بالتدرج أسفلها فيكون المسجد أعلى معلم في المدينة. أما حديثاً، فقد تطاول الناس في البنيان وأصبح المسجد بناية من البنايات الأخرى وأدى هذا البناء الفوضى إلى التنافس على حيز فيزيقي محدود إما لأن المكان غير مكلف فيستقطب عامة الناس أو قريب من بعض المرافق الضرورية أو يقع بعيداً عن أعين أصحاب القرار والنفوذ... الخ، فتكدست هذه البنايات ونمت مع تزايد السكان أو أفراد العائلة الواحدة في شتى الاتجاهات وملأت جل المساحات الفارغة وأصبح الحي أشبه ما يكون بـ "الصندوق العجيب" الذي يحتوي على دهاليز وأزقة وخنادق ومنعرجات يصعب الدخول أو الخروج منها بسهولة وغالباً ما تنسد هذه المنافذ أمام السيارات أو الحافلات أو مركبات الإسعاف والمطافئ لضيقها وفوضاها. وأدى الاكتظاظ داخل المساكن إلى الاندفاع نحو الشارع، فيقضي أفرادهم معظم أوقاتهم خارج البيت ويكونون حلقات الجلوس والمحادثة على أركان الشوارع أو المقاهي ويدخلون بيوتهم فقط للنوم آخر الليل. وانعكس هذا الجو على انعدام الأمن في البيئة سواء تعلق الأمر بالأمن الشخصي أو الأمن على الممتلكات، وكأن حق الإنسان في دمه وماله وعرضه تراجع إلى مستويات دنيوية³⁵ في هذه البيئة. وعادة ما تكون المرافق محدودة في هذا الحيز وأهمها الماء والكهرباء ومجاري المياه والمواصلات والمدارس والعيادات... الخ. ويترتب عن ذلك التلوث وقلة النظافة أو انعدامها أو انتشار الأمراض الجسدية والنفسية وغيرها، يضاف إلى ذلك أن اغتراب الفرد عن حيزه الفيزيقي ولد عدم الاكتراث بالمحيط والإهمال والتسيب الذي انعكس على المحيط والإنسان، ويتصف هذا الحيز السكني بانعدام الجانب الجمالي الذي يمكن أن يثبت في الفرد روح الألفة والتعلق والانتماء، بل إن الحيز يبعث في نفوس أهلها نزعة الإحباط واليأس والنفور. وتنعدم المساحات الخضراء إلا ما ندر. وطالما أن المكان يقيّم مادياً فحسب فإن المساحة الخضراء تعتبر فضاء ضائعاً يتعين استغلاله في البناء أو التجارة. وقد تداخل الحيز السكني مع التجارة بشكل لم يسبق له مثيل في تاريخ تطور المكان، فكل بناية يرافقها محل تجاري، فالإنسان لا يبني للسكن فحسب ولكن للتجارة أيضاً، وهكذا اختلط الحيز السكني بالحيز التجاري تحت طائلة ومبررات البطالة، وقلة المرافق الضرورية في هذه الأحياء... الخ.

يخلص هذا العرض إلى ضرورة بعث القيمة في البيئة بالمنطقة العربية الإسلامية، وذلك عن طريق إعادة تشكيل البيئة القائمة أو المستحدثة بما يحقق التوازن الداخلي وممارسة القيم واحترام حق الجار في خصوصيته وممتلكاته ومشاركته في أفراحه ومؤازرته في أحزانه وتحقيق التآلف الاجتماعي، وإضفاء الجمالية على الهندسة المعمارية. فالمكان يتمحور حول القيمة التي هي أساس العمران، فما انتفت القيمة في الهندسة والتخطيط العمراني انقلب المكان إلى مصدر توتر وقلق، وعدم إحساس بالأمن والانتماء. وإذا كان الإنسان بن بيئته، فإن البيئة غير المحكومة بالقيمة تصبح مصدر نفور ومنشأ مختلف الانحرافات، كما تولد مثل هذه البيئة غير السوية الدافع نحو ترك المكان والهجرة وقطع مع ما يمثلها المكان من ذكريات وحنين وتجارب وعلاقات.

إن إهمال قيمة المكان يمس قيمة الإنسان ذاته، فقيمة الفرد في بيئته الفيزيكية التي تحوي قيمه، هي مصدر التنشئة القيمية والاجتماعية للأجيال الناشئة. فالفرد يحتاج معيشة قيمه في بيئته. إن مثل هذا الطرح ليس

بالشيء غير المألوف فالكثير من المجتمعات المعاصرة أدرجت مبادئها أو فلسفتها في الحياة كمبدأ الخصوصية والفردانية في عمراتها، والعمران³⁶ أحد التعابير الأساسية في تحقيق سعادة الفرد والألفة الاجتماعية والانسجام مع البيئة، وما أحوج البيئة الفيزيائية في المنطقة العربية والإسلامية إلى الوعي القيمي إن صح هذا التعبير وإعادة الصلة المفقودة مع هذه البيئة الغنية بالقيم والعبر والتاريخ والانجازات في شتى المجالات.³⁷

يعتبر المكان، أي البيئة الفيزيائية الذي يعيش فيه الأفراد، جزءاً من التكوين الذاتي والاجتماعي والتاريخي في أي مجتمع، ويشمل ذلك:

- أ - جغرافيا المكان: التضاريس، كالسهول والهضاب والجبال والصحاري والأنهار والبحار وأحوال الطقس.
 - ب - القيم والتقاليد التي تحكم العلاقة مع البيئة.³⁸
 - ت - العمران: المساكن والأزقة والشوارع والخوانيت والمدارس والمقاهي والمخابز والمطاعم والساحات والحدائق وأماكن العبادة والملاعب والمقابر ومقرات الإدارة والجسور والسجون والملاهي والثكنات العسكرية والمصانع الخ.
- فكل عنصر من هذه البيئة، المكان والقيم والعمران، يلعب دوراً في تأسيس ذهنية الفرد وما يحمله من شخصيته وذاكرته، وكذا نظرتة إلى المحيط الاجتماعي والفيزيقي، والحاصل أن المكان والقيم والعمران عناصر ضرورية تنبني عليها التربية والتنشئة والعلاقات الاجتماعية التي يتحرك في دائرتها المخزون الثقافي كالعادات والتقاليد والتجارب والمعاناة والطموحات والحراك السياسي، والعلاقة مع الدوائر الجغرافية الأخرى المحيطة، وأنماط الاتصال المتعددة الخ، فالمكان تمازج بين الطبيعة والقيم والثقافة وأنماط التعامل مع البيئة والآخر والعمران. يضاف إلى ذلك تدخل وسائل الإعلام والاتصال كالتلفزيون والمجلات والسينما والصحف والإنترنت في تكوين أنماط من الصور المكانية التي تكون خارج دائرة الواقع المعاش للفرد فتدخل عليه مكاناً رمزياً متباعداً ومألوفاً مع تزايد الارتباط بهذه الوسائل، وتؤدي "كثرة" استخدام وسائل الإعلام وخاصة التلفزيون والإنترنت إلى نوع من "الاغتراب" عن المكان المعاش، والتعلق بالمكان المألوف الجديد الذي تعرضه هذه الوسائل في صور الأفلام والمسلسلات والإعلانات عامة، وبمعنى آخر يصبح المكان الرمزي الجديد هو المكان "الحقيقي"، فيبدو متشابهاً تغيب فيه الخصوصية المكانية، وذلك جزء من العولمة المكانية فالمكان ليس حيزاً فيزيائياً فحسب، بل فضاء يمس شتى مجالات الحياة كالقيم "المكانية"، ونوع العلاقات الاجتماعية وشكل العمران وغيرها، فهناك تداخل بين المكان والجوانب القيمي والثقافية والنفسية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية والتاريخية والعمرانية في المجتمع عامة.³⁹

كما أن التطور الهائل الذي عرفته البشرية جعل الفضاءات ذات طبيعة وأشكال مادية ومعنوية، فبعد أن كان الإنسان يقتصر على العمل بمكان والسكن بأخر تعقدت الحياة الاجتماعية وجعلت الأمكنة خاصة وعامة، شخصية وجماعية وهي كلها تحديدات تُوضع الإنسان وتموضعه نسبة للتخصص الدقيق في الأدوار الاجتماعية وتبعاً لميولاته التي تملك أو لا تملك المبرر الكافي لوجودها

الفضاء الشخصي:

ثمة اختلافات ثقافية في تعريف الفضاء الشخصي في الثقافة الغربية، يميل الناس إلى الاحتفاظ بمسافة تبلغ نحو متر واحد فيما بينهم عندما يدخلون في حالة التفاعل المركز؛ وقد يتقاربون عندما يصطفون واقفين جنباً إلى جنب. أما في بيئة الشرق الأوسط الثقافية فالناس يتقاربون وتقتصر المسافة بينهم عندما يتجمعون⁴⁰ سوياً. ومن هنا فإن عددا كبيرا من الغربيين الذين يزورون المجتمعات العربية والإسلامية للمرة الأولى قد يواجهون حالة من العزلة والارتباك عند لقاءهم بأهل البلاد وإدراكهم قصر المسافات التي تفصل بينهم. ويرى Hall (1959-1966) الذي قام بدراسات مكثفة وموسعة عن أشكال التواصل غير الشفوي أن هناك أربعة أصناف من الفضاء الشخصي فالمسافة "الحميمة" التي تبلغ نحو نصف متر لا تشمل إلا عددا قليلا جدا من عمليات التواصل الاجتماعي ويشيع استعمالها في أغلب الحالات بين الأفراد الذي يسمح لهم باللمس والتقرب الجسدي بصورة منتظمة مثل: العشاق، الوالدين، والأهل، والأطفال. أما المسافة "الشخصية" التي تتراوح بين نصف متر ومتر واحد فهي المسافة التي تفصلنا عن لقائنا بالأصدقاء والمعارف المقربين. وقد يسمح بقدر من التلامس الحميم في مثل هذه اللقاءات، غير ذلك يجري بصورة محدودة جدا. وهناك المسافة "الاجتماعية" التي تتراوح بين متر إلى ثلاثة أمتار، وتمثل المجال المادي العياني الذي تدور فيه التجمعات الرسمية مثل المقابلات والندوات الصغيرة. أما الصنف الرابع، فهو المسافة "العامة" التي تزيد على أربعة أمتار وتفصل بين من يقومون بأداء فعل أو دور ما أمام الجمهور.

وفي مجالات التفاعل العادية يستخدم على الأكثر الفضاءان الحميم والشخصي، وإذا ما اقتحم واحد من هذين المجالين؛ فإن الناس سرعان ما يحاولون استرجاع الفضاء الذين يخصهم وكأنهم يطلبون من الأطراف الغازية أن تعود أو تبتعد عنهم. وإذا ما تعرض الناس لتقارب غير مرغوب فيه فإنهم قد يقومون بوضع حاجز مادي للحيلولة دون اقتحام فضائهم الشخصي، كان يقوم أحد زوار المكتبة العامة بإقامة حاجز من الكتب حول البقعة التي يقرأ فيها لردع الآخرين عن تجاوزها.⁴¹

الهوامش

1. حمد اسويتري، النقد البنيوي والنص الروائي: نماذج تحليلية من النقد العربي، إفريقيا الشرق، الدار البيضاء، المغرب، ط1 1999.
2. حسن نجعي، شعرية الفضاء المتخيل والهوية في الرواية العربية، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط 1، 2000.
3. المرجع السابق.
4. المرجع السابق.

5. -عزي عبد الرحمن، الثقافة وممارسة الاتصال- نظرية قيمية، المجلة الجزائرية للعلوم السياسية والإعلامية، جامعة الجزائر2، كلية العلوم السياسية والإعلامية، شتاء 2002-2003، العدد 2، ص248.
6. فعاليت الملتقى الدولي، إشكالية حضارة المجتمع الإعلامي بالجزائر، جامعة وهران، كلية العلوم الإنسانية والحضارة الإسلامية، قسم علوم الإعلام والاتصال، 14 - 15 مارس 2005
7. محمد محفوظ، الفكر الإسلامي المعاصر ورهانات المستقبل، ط1، الدار البيضاء، المغرب، بيروت، لبنان، المركز الثقافي العربي، 1991، ص121.
8. روجيس دوبري، ترجمة فؤاد شاهين، جورجيت الحداد، محاضرات في علم الإعلام العام: الميديولوجيا، ط1، بيروت، دار الطليعة، 1996، ص93.
9. Alain Cottereau et Paul Ladriere' pouvoir et légitimité, Paris, édition de l'école des haute études eu science sociale, 1992, p35
10. Roger Boutier, Habermas et le champ de la communication, revue cinémactions, édition S F S I C, Paris, corlet N° 36, Mars 1992, p 89.
11. Louis Quéré, agir dans l'espace public : les formes de 4 action, Paris, édition de L'EHESS, 1990, p 101.
12. Ibid, p 102.
13. Dmominique Wolton, communication politique construction de modèle, revue Hermès N°= 4 le nouvel espace public, Paris, édition CN RS 1989, p 27.
14. - Pierre Chambat, le rôle de la médiation technique, textes réunir par isabelle Paiuart: l'espace et l'emprise de la communication rendable, édition E L V, 1995, p 67.
15. Ibid, Alain Cottereau, Paul Ladriere' pouvoir et légitimité, opcit, p 30.
16. Ibid, p 35.
17. Ibid, p 8-9.
18. Ibid, p 20.
19. Ibid, p 39.
20. Ibid, p 35.
21. Iouri Lotman, la structure de texte artistique, traduite par Anne Fournier et autres, paris, Galtimard 1973, p 310 .
22. Ibid, Greimas A.J. et Courtés J, Dictionnaire raisonné des la théorie du langage, p 132-133.
23. الطاهر رواينية، شرديات الفضاء الروائي في الجازية والدرأيش، مجلة المسألة.ع1.ربيع 1991 ص19.
24. Ponlet, p 51
25. منصور نعمان نجم الدليمي، المكان في النص المسرحي، دار الكندي للنشر والتوزيع، الأردن، ط1، 1999، ص 19 5.
26. أحمد زياد محبك، ص 55 .
27. - Williams Raymand, communications comme science de la culture in réseaux, (CENT) France, N 80, novembre-decembre 1996, p.p 90-106.

28. محمد بن علي المحمود، التقليدي. جدلية الإنسان والمكان، جريدة الرياض الخميس 21 رجب 1429 هـ - 24 يوليو 2008 م - العدد 14640 نقلا عن:
29. Tornqvist, G. , 2004 : Creativity in time - and space . Geogr. Ann. , 86 , B (4) : 227-243 . Gunnar Tornqvist , Department of Social and Economic Geography , Lund University, Solvegatan 12 , 223 62 Lund , Sweden, 30. المرجع السابق، نفس العدد.
31. عزي عبد الرحمن، الإعلام وتفكك البنايت القيمية في المنطقة العربية: قراءة معرفية في الرواسب الثقافية، الدار المتوسطة للنشر، ط1، 2009، ص 52.
32. Edward Twitchell Hall, le langage silencieux, traduit de l'américain par Jean Mesrie et Barbara Nineall, edition de Seuil (07-2009).
33. عزي عبد الرحمن، الإعلام وتفكك البنايت القيمية في المنطقة العربية: قراءة معرفية في الرواسب الثقافية، مرجع سابق، ص 71.
34. المرجع السابق، ص 72.
35. المرجع السابق، ص 73.
36. المرجع السابق، ص 74.
37. المرجع السابق، ص 47.
38. المرجع السابق، ص 48.
39. المرجع السابق، ص 49.
40. المرجع السابق، ص 50.
41. أنتوني غدنز، علم الاجتماع، ترجمة فايز الصباغ، المنظمة العربية للترجمة، ط4، بيروت، 2001، ص 175.